٢
أبو الدرداء
أول قاضى للمدينة

ظهر الإسلام ودولتا الروم والفُرس تتنازعان حكم العالم بالقوة والاستبداد، وكانت دولة الروم تدين بالنصرانية، ولكن نشأة هذه الدولة فى الوثنية من قبل كان لها أثرها فى نصرانيتها، فلم تأخذ فيها بالنصرانية التى تدعو إلى المحبة والتوحيد الخالص.. بل اضطهدت المتمسكين بها، وناصرت الذين يذهبون فيها إلى عقيدة التثليث، وكانت هذه الدولة ـ الرومانية ـ قد ورثت الفلسفة اليونانية فيما ورثته عن دولة اليونان قبلها، فأخذت تنحرف بهذه الفلسفة نحو تأييد عقيدتها فى النصرانية، حتى آثَرَتْ فى ذلك فلسفة أفلاطون على فلسفة أرسطو، لأن فلسفة أرسطو واقعية لا تؤيد انحرافها فى العقيدة، وإنما تتسع له فلسفة أفلاطون صاحبة المثل العقلية، لأنها فلسفة خيالية يمكن التوفيق بينها وبين ذلك الانحراف... ولهذا كان لابد من ظهور قوة ثالثة تمثلت فى الدولة الإسلامية تعيد للحياة ما افتقدته من العدل والتسامح.. هذه الدولة قامت على أكتاف رجال كان من بينهم «أبو الدرداء عُوَيمر بن مالك.»

وأبو الدرداء صحابى جليل، جمع إلى إيمان القلب ورحمته رجاحة العقل وحكمته، فكان بحق هو الحكيم، وهو الزاهد، وهو العابد، وهو الأوَّاب، وهو التقى الذى إذا أطْرَى الناس تُقاه وسألوه الدعاء أجابهم فى تواضع مُبْهِرٍ قائلا: «لا أُحْسن السباحة.. وأخاف الغَرَق». وهكذا كان مسلكه فى الحياة، التواضع الجم، والزهد الجميل.

لكنَّ أبا الدرداء كان يحْسن ما يُطْلَبُ منه، وأى إحسان يُطلب من إنسان هو فى التقى والورع مضرب الأمثال؟ ويكفيه شرفاً أنْ نزلت فى شأنه بعض آيات القرآن

الكريم، وأن يسأل النبى صلى الله عليه وسلم المولى عز وجل أن يشد أزْرَ الإسلام والمسلمين بإسلام أبى الدرداء، وأن يقول عنه عليه الصلاة والسلام: «إن الله وَعَدنى إسلام أبى الدرداء» وقد كان، فما هى إلا فترة من الزمن لم تطل حتى كان أبو الدرداء من الذين مَنَّ الله عليهم بنعمة الإسلام.. وكان وَعْدُ الله حقاً.

وفى مجال الحكمة كان حكيماً تتفجر الحكمة من جوانبه، يقول لمن حوله من الصحابة الأجلاء: «ألا أُخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند باريكم، وأنماها فى درجاتكم، وخير من أن تغزو عدوكم فتضربوا رقابهم ويضربوا رقابكم، وخيرٌ من الدراهم والدنانير؟ ويصمت الحاضرون انتظاراً لما يقوله ذلك الحكيم الدى وُجدَ بينهم، وتشرئب أعناق الذين ينصتون إليه، ويسارعون بسؤاله: «أى شىء هو يا أبا الدرداء؟» وهنا يستأنف أبوالدرداء حديثه ووجهه.. يتألق بنور الحكمة والإيمان: «ذكر الله.. ولذكر الله أكبر»!! صدقت يا أبا الدرداء، وهل هناك أجَلُّ وأعظم مِنْ ذِكْر الله.. ألا بذكره تطمئن القلوب.. ولم يكن أبو الدرداء.. بكلماته هذه يبشر القوم بسلبية مطلقة، ولا بالتنصُّل من تبعات الدين الجديد.. تلك التبعات التى يأخذ الجهاد مكان الصدارة منها.. لم يكن هذا هو أمره، وهو الرجل الذى قيل عنه إنه أُمَّةٌ فى رجل، حيث حمل سيفه مجاهداً مع النبى صلى الله عليه وسلم منذ أسلم حتى جاء نصر الله والفتح.. ولم يكن بهذا الرجل الذى لايعرف ما يقول، وإنما هو حقاً وصدقاً يعقل كل مايقول.

إن أبا الدرداء كان رجلا من ذلك الطراز الذى يجدد نفسه على أكمل ما تكون كان فيلسوفاً يخلو إلى التأمل، وحكيماً يأوى إلي محراب الحكمة، وزاهداً ينذر حياته بنشدان اليقين، وإنسانا يتملكه شوق عارم إلى رؤية الحقيقة واللقاء بها، ومؤمناً تفتحت بصيرته على الجوانب التى تخفي على الذين لايتمتعون مثله بشفافية الإيمان.

وإذْ آمنَ بالله رباً واحداً لاشريك له، وبرسوله نبياً، وبالإسلام ديناً فقد تأكد له بأن هذا الإيمان بما أوجب عليه من واجبات وفَهْم.. هو طريقه الأمثل إلى اليقين والحقيقة التى ينشدها كل حكيم أو فيلسوف يستبطن الحكمة من أعماقها.

لقد استولت العبادة والتأمل على نفسه وكل حياته، ويوم أن بايَعَ الرسول ﷺ على هذا الدين الجديد كان من أكبر تجار المدينة.

وفى هذا يعلن أبو الدرداء راضياً مرضياً، سعيداً هادئ البال، لأنه أدرك الحقيقة، فيقول: «أسلمتُ مع النبى ﷺ وأنا تاجر، وأردت أن يجتمع لى العبادة والتجارة فلم يجتمعا، فرفضت التجارة، وأقبلت على العبادة، وما يسرنى اليوم أن أبيع وأشترى فأربح كل يوم ثلاثمائة دينار حتى لو يكون حانوتى على باب المسجد.. ألا إنى لا أقول لكم: إن الله حَرَّمَ البيع، ولكنى أحب أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيعٌ عن ذكر الله». ويصغى القوم لمن باع دنياه بثمن غير قليل، حيث فضل الآجلة على العاجلة، الآخرة على الدنيا..

هكذا أوفى أبو الدرداء القضية حقها.. فهو يسارع قبل أن يسأله القوم: وهل حَرَّمَ الله التجارة؟ فينفض عن الخواطر هذا التساؤل مشيراً إلى الهدف الأسمى الذى كان ينشده، ومن أجله ترك التجارة.. وهو نشدان ذلك الكمال الفعلى الذى يرنو إليه كل إنسان، يريد الهداية لمعراج يرفعه إلى عالم الخير الأسمى، ويشارف به الحق فى جلاله، والحقيقة فى مشرقها، والنور فى سطوعه.. إنها نعمة الإيمان الذى لايدانيه شيئاً فى الحياة.. وهل هناك فى الحياة أعظم وأسمى من هذه النعمة؟ وليس هذا بغريب على أبى الدرداء؟؟ الذى آخَى النبى ﷺ بينه وبين سَلْمَانَ الفارسى والذى شارك غزوات الرسول ثم فى الفتوحات الاسلامية ومنها فتح مصر الذى جاءها مع عمرو بن العاص بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كأحد قادة المسلمين.

ولعلنا بعد هذه اللمحة السريعة عن أبى الدرداء نطوف مع المفكر الإسلامى خالد محمد خالد فى تقديمه لجوانب من شخصية هذا الصحابى الجليل لنتعرف على شخصيته أكثر وأكثر.. ولنبدأ بفلسفته تجاه الدنيا وتجاه مباهجها وزخرفها- على حد تعبير هذا المفكر الكبير - فنراه متأثراً بآيات القرآن التى تحض على جَمْعِ المال فى قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾[1]. ومتأثراً أيضاً بالحديث الشريف، حيث يقول ﷺ: «ما قَلَّ وكَفَى، خيرٌ ممَّا كثرُ وأَلْهَى». وقوله: «تَفَرَّغُوا من هُموم الدنيا ما استطعتم، فإنه مَنْ كانَت الدُّنيا أكْبَر هَمِّه فرقَ الله شَمْلَهُ، وجعَلَ فقرهُ بين عينيه. ومَنْ كانت الآخِرَة أكبرَ هَمِّه جَمَعَ شَمْلَهُ، وجعَلَ غِناهُ فى قلبه، وكان الله إليه بكل خير أسرع».

ولذلك نرى أبا الدرداء كان زاهداً فى المال، راثياً لعبيده، فيقول: «اللهم إنِّى أَعُوذ بكَ منْ شَتَات القَلْب»، وحين سُئل: وما شتات القلب يا أبا الدرداء؟ أجاب: «أنْ يكون لىَ فى كل وادٍ مالٌ». إنه بهذا الإدراك يدعو إلى إمتلاك الدنيا بالاستغناء عنها، ولعل ذلك يبدو فى قوله: «مَنْ لم يكن غنياً عن الدنيا.. فلا دنيا له».

ولعل وجهة نظره فى الدنيا لم تكن مجرد نظرية، بل كانت تطبيقاً فنرى موقفه يوم أن خطبَ يزيد بن معاوية بن أبى سفيان إبنته «الدرداء»، يرفضه، ولا يقبل خطبته. ويزيد مَنْ هو يزيد؟ إنه ابن من أبناء أشراف العرب وسادتهم! غير أن أبا الدرداء الذى باع الدنيا من أجل الآخرة يرفضه ويفضل عليه أحد فقراء المسلمين: لا لسبب إلا لكونه رجلاً صالحاً. ويُدهش الناسَ من تصرفُه هذا، إذْ كيف يُفضل فقيراً على أمير فيردهم قائلا: «ما ظنكم بالدرداء ـ يعنى ابنته ـ إذا قام على رأسها الخدَمُ والخصيان، وبهرَهَا زخرف القصور..أين دينها يومئذ؟»..

كلمات لا تصدر إلا من مؤمن حكيم، امتلك الدنيا دون أن تمتلكه.. حكيم يقول: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يعظم حلمك ويكثر علمك، وأن تُبارى الناسَ فى عبادة الله تعالى».

وخصال كثيرة يَتمتع بها هذا الصحابى الجليل، كانت مضرب الأمثال بين الناس.

* * *

(١) سورة الهمزة ـ الآيتان: ٢، ٣.